العائلة والإنجاب

بقلم الشيخ سليمان المدني

انتاج الابناء هي الوظيفة الرئيسية للعائلة بل هي الوظيفة الاساسية فيها ، فالمبررات الاخرى للزواج وعن اهمها اللذة الجنسية انما هي في واقعها حوافز لدفع الانسان للتضحية بحريته والاقدام على ربط نفسه بشخص آخر مدى الحياة ، لينجبا معا اجيالا جديدة تعمر هذه الارض وتؤدي مراسم الطاعة لخالق هذا الكون ولذلك رأينا في الاعداد الماضية كيف أن الامور التي اعتبرها علماء الاجتماع وظائف للعائلة قد تخلت العائلة عن القيام بها سواء كان هذا التخلي طوعيا أو عن طريق تدخل المجتمع ، فحتى اشباع الغريزة الجنسية اصبح ممكنا للفرد عن غير طريق العائلة أما عن طريق البغاء الرسمي او عن طريق الصداقات . ولم يعد الفرد الذي لا يصر في الكون الا المادة محتاجا الى العائلة لتوفر له ذلك .

أما الابناء فلايتمكن المجتمع توفيرهم للفرد ، بل لا تعترف المجتمعات بالبنوة الا اذا جاءت عن طريق الازدواج المشروع ، ولقد اخفقت كل محاولات المجتمع الدولي لحمل المجتمعات على قبول فكرة التبني كأمر طبيعي كما اخفقت تلك الجهود التي تبذلها الامم المتحدة في هذا السبيل فمفاهيم الابوة والبنوة والاخوة والامومة مقترنة في أذهان بني البشر بوجود العائلة القائم على التعاقد بين شخصين يجوز لهما شرعا انشاء هذه العلاقة ، ولذلك نستطيع القول بجزم ان العائلة لن تتخلى عن هذه الوظيفة لانها وظيفتها الطبيعية والغاية القصوى لوجودها ، ويوم تتخلى العائلة عن هذا الامر وينقل المجتمع هذه الوظيفة عن كاهل العائلة الى المصانع والمختبرات فان العائلة ستكون ملغية وستتحقق نبوءة (انجلز) بانه سوف يأتي يوم لا تهتم المرأة بأي رجل يصيبها .

ومن أجل ذلك قلت في عدد مضى لا توجد فكرة مضرة ببقاء العائلة كمؤسسة اجتماعية مقدسة كفكرة تحديد النسل ، ذلك ان الرجل الذي يوافق على استعمال موانع الحمل من دون مبرر طبي ضروري انما يجرد العملية الجنسية من معناها الاخلاقي والاجتماعي ويحولها الى مجرد لعبة لذيذة تنتهي نتائجها بالفراغ منها ، بل هو يركز في نفسه بان المرأة التي تضاجعه ليست الا اداة للقيام بهذه اللعبة ، وما ينطبق على الرجل هنا ينطبق على المرأة .

وما دامت قد تعرضت لفكرة تحديد النسل فلا بأس ان نلم بشيء عن تاريخها وتطورها ومبرراتها وما ستترتب على تطبيقها من نتائج .

ولعل اول من نادى بهذه الفكرة هو الاقتصادي الانجليزي المتشائم توماس روبرت مالش وقد كان الرجل قسيسا في احد الكنائس البريطانية ثم تحول الى علم الاقتصاد وقد ادى به تشاؤمه الى القول بان الناس اذا زادوا عن حد معين فوق هذه الارض فسيموتون جميعا من الجوع ، وذلك لان التكاثر في السكان يخضع لمثولية هندسية بينما الزيادة في موارد الغذاء تسير وفقا لمثولية عددية ،

ويقول مالش في هذا الصدد في كتابه (مقال في مبدأ السكان) المطبوع عام ١٨٠٣ ما نصه « ان هناك غرضين اولهما ضرورة الغذاء لبقاء الانسان وثانيهما ان الشهوة بين الجنسين ضرورية وستظل تقريبا على حالتها الراهنة » مادمنا حسب هذا القول لن نتمكن من تطوير موارد الغذاء كما لا نتمكن من الحد من الشهوة بين الجنسين فلابد لنا من الحد في الانسال والتكاثر في السكان . ويرى مالش ان التاريخ قد اثبت بان الضغط المتصل من جانب السكان على موارد المعيشة لم يكن يخلف منه سوى الحروب والاوبئة والمجاعات .

ويطالب مالش بان لا تعلو اجور العمال فوق مستوى الكفاف والا فسوف تتدخل الطبيعة في الموضوع ويفسر هو تدخل الطبيعة في هذا الموضوع بان زيادة الاجور عن حد مستوى الكفاف يعني ان زيادة في النسل ستقع وعندئذ يزيد العمال واذا زاد العمال هبطت الاجور الى اقل من مستوى الكفاف فيقضي الموت على الفائض من العمال ليعود ميزان الاجور الى مستوى الكفاف هذا ما يعرف بالقانون الحديدي للاجور في علم الاقتصاد .

. . . . . .

هذه النظرية انما جاءت نتيجة لتشائم الرجل ، فقد كان مالش معروفا بالتشائم الشديد بين علماء عصره ، والا فهي لا تتفق حتى ومعتقده كرجل دين ويقول جورج سول: (ان مالش كان يحس ان عليه ان يجد تفسيرا معقولا للمشكلات الاجتماعية الطالة بوصفه من رجال الدين) . ولما كانت الديانة المسيحية خلوا تماما من نظام اقتصادي او دنيوي ذهب مالش يخبط في علم الاقتصاد متبعا آثار آدم سميث ومضيفا الى ذلك طبيعته التشاؤمية .

ومنذ ان انطلقت هذه النظرية صفقت لها المؤسسات الصهيونية ، فقد وجدت فيها وسيلة للقضاء على جانب كبير من الاخلاقية في الحياة الاجتماعية ، ومبررا كبيرا لاسكات الشعوب عن المطالبة بتطوير موارد العيش وكرست لها المؤسسات والعلماء والمبشرين ووجد رؤساء الدول في هذه الفكرة مخدرا كبيرا يلهي الناس عن التمعن في اهمالهم لزيادة الدخول القومية ، فمادمتم تكثرون من التوالد فان موارد العيش لن تكفيكم ، ولم تكن استفادة الحكام والدول من هذه الفكرة بأقل من استفادة شركات العقاقير والادوات الطبية فراحت تجند لها حشودا كبيرة من الاطباء ليبثوا في اذهان الناس وجوب تعاطي العقاقير الطبية المعيقة للحمل .

واما بالحجة الاقتصادية السالفة الذكر ، والنتيجة المنطقية والنفسية التي تنتج من كل هذه الضجة التي تقيمها الهيئات الدولية الخاضعة للصهيونية العالمية او المتأثرة بها انه يجب على الفقراء لا يزيدوا اعدادهم حتى لا تتضايق الدول وتقلص من مصروفاتها . او تضطر لاعمار الاراضي وانشاء المشاريع الانمائية .

ولست احاول في هذا المقام تفنيد حجج دعاة تحديد النسل او تنظيم النسل كما اطلقوا

عليه مؤخرا ليلطفوا العبارة ، فحسبي ان الناس لن يفهموا مثل هذه الدعوات الهدامة والمنافية للطبيعة البشرية .

ان محاولتي هنا تنحصر في الجواب على سؤال ، هل ان الامة العربية في الفترة الراهنة تقتضي مصلحتها اطلاق طاقة الانسال والتكاثر لدى السكان على اشدها او انها تقتضي ان تحد من هذه القوة ؟

اذا القينا نظرة واحدة على خارطة العالم فسنستنتج منها

١ ـ الرقعة التي يحتلها العرب من العالم والتي يطلق عليها رسميا البلاد العربية تمثل خمس ارض العالم فهي تمتد من البحر العربي والمحيط الهندي شرقا وتنتهي بالمحيط الاطلسي غربا وتنحصر بين خطي الطول عشر درجات غربا الى خط الطول ٦ درجة

٢ ـ ان طبيعة هذه الارض تختلف بين مكان ومكان ففيها المناطق الجبلية والسهول المنخفضة والصحارى الرملية وتختلف بذلك منتجاتها الطبيعية فمن مناجم المعادن الى آبار النفط الى الشطوط والانهار وخزائن المياه الجوفية .

٣ ـ ان عدد السكان في الوقت الحاضر لا يزيد على احسن فروضه ومع المغالات فيه عن مائة وعشرين مليون نسمة مقسمة بين دول اقليمية مختلفة وموزعين على هذه الارض على شكل مجموعات صغيرة فيها .

واذا اجمعنا هذه الحقائق فانه يتضح لنا ان من غير الامكان للعرب ان يستغلوا الموارد الطبيعية الموجودة في هذه الاراضي الشاسعة مادامو بهذه القلة، فكل هذه الصحارى الشاسعة هي مناطق صالحة للزراعة اذا ما استخرجت مياهها الجوفية او جمعت فيها الامطار في سدود ، الا ان اليد العاملة سوف لن تكفي للقيام بمثل هذه المشاريع كما ان الانهار الموجودة في بعض البلاد العربية والتي طالما فاضت مياها يمكن ان توجه بشق الانهار الفرعية والترع لري جزء كبير من الصحارى العربية ، جمهورية مصر التي طالما تأففت من تزايد سكانها وطالبتهم بالحد من الانسال وكرست لذلك صحفها وسائر وسائل اعلامها ، لا تزال في اكثر اجزائها خالية من السكان حتى اننا لو الغينا الحدود السياسية واعتبرنا الدول لا تتعدى حدودها الساحات المأهولة لعادت مصر شريطا ضيقا في متاهة لا حد لها .

وربما يحتج بعض المدافعين عن التقصير في مثل هذه الناحية بان الصحارى الموجودة في القارة الافريقية تختلف عن الصحارى في الجزيرة العربية فبينما صحارى الجزيرة العربية ضالحة للزراعة ولا ينقصها غير الماء والعمال ..

فان صحارى مصر غير صالحة للزراعة مطلقا ، وقد يكون في هذا القول نصيب من الصحة ، الا ان طبيعة الارض المصرية كلها واحدة ، فحتى هذا الشريط الضيق المعمور من مصر لم يكن ليصلح للزراعة لولا بركة النيل ولذلك قيل في القديم ان مصر هبة النيل ، ولو ان مياه النيل المتدفقة الى البحر وجهة نحو الصحراء لاصلحت ارضها بما تحمله من الطمي والغرين ولاخصبت نما على المصريين الا ان يشقوا الانهار والترع وينقلوا السكان من هذا الشريط الضيق لينتشروا في ارض الله الواسعة التي وهبها لهم وبذلك يزول الاحتياج عن المطالبة بتحديد النسل .

وهذان الرافدان وهما من اكثر انهار الارض خيرا وبركة وقد كانا في العهود الاسلامية يقومان باطعام اربعين مليونا من الناس ويصدر بقية حاصلهما الى خارج العراق عجزا اليوم عن اطعام ثمانية ملايين من البشر وتحولت تلك الاراضي التي كانت قبل الف من السنين خصبة الى ارض متربة تضطر اذا سافرت في وسطها ان تغلق نوافذ سيارتك حتى لا يخنقك الغبار . ثم لماذا تترك مياههما تصب في الخليج ليلا ونهارا اليس بالامكان ان يشق نهر من موضع التقائهما في القرنه ليتجه الى شبه الجزيرة ليتروى منه الدهناء والنفوذ وتهاق بدلا من ضياع كل هذه المياه ، كل هذه الامور ممكنة اذا توفرت الطاقات البشرية ، وان العالم ليسألنا لماذا لا نستغل هذه الارض الطيبة والقادرة على الانتاج في وقت تكون فيه الدنيا احوج ما تكون الى طعام والى ملبس واذا بقينا عاجزين عن القيام بمثل هذا العمل للعالم فهل سنترك محتفظين بارضنا ؟

ان الفراغ السياسي الذي اشار اليه ايزنهاور في يوم من الايام هو في واقعه تعبير عن الفراغ البشري في هذه الرقعة الواسعة من الكرة الارضية .

ان صيغة انذار (اذا كنتم عاجزين عن ان تخرجوا للعالم شيئا من خيرات ارضكم لتساهموا في دفع الجوع فان عليكم ان تتخلوا للقادرين على ذلك ان يفعلوا) .

ثم ان استغلال الثروة المعدنية الهائلة الموجودة في باطن الارض العربية واشادة الصناعة الثقيلة سوف لن تقدر على ايجادها الا بجيوش جرارة من العمال والفنيين والخبراء وهذا لن يتأتى الا اذا ارتفع عدد السكان الى ضعف ما هو الموجود على الاقل . والا فاننا سنضطر الى بيعها للغير على شكل مواد خام ثم نعود ونشتريها منهم بما دفعوه من اثمان ازاءها قبل التصنيع فالدعوة الى تحديد النسل مهما البست من صور ومهما اخترع لها من مبررات هي دعوة ضارة بنا في الوقت الحاضر على الاقل .

والاخطر من كل ما مر والذي سوف تحقق جزما اذا رضينا ان نسير في مخطط دعاة تحديد النسل هو ما سيصيبنا من انحصار اجتماعي قد بدت بوادره يخشى منه القضاء على عروبتنا قضاءا تاما ان لم يكن القضاء عليها كليا . ولشرح هذه الفكرة لابد من التبسط في القول ولو بمقدار ما تتحمله الصفحات المخصصة لمثل هذا الموضوع ، يقول علماء الطبيعة ان الاعصارات الهوائية تحدث بسبب وجود قطعتين من الارض متقاربتين احداهما تكون ذات ضغط منخفض والاخرى ذات ضغط مرتفع ، ولا اشكال في ان هواء الارض ذات الضغط المرتفع يكون متخلخلا وتحدث فيه فجوات فعندئذ لابد ان تملأ هذه الفجوات بالهواء لعدم امكان وجود الخلاء فيندفع الهواء الموجود في الارض ذات الضغط المنخفض لملأ هذا الخلاء ويكون اندفاعه شديدا بحيث يتلف كل ما صادفه من الاشياء وهذا الهواء المندفع بقوة هو ما يسمى بالاعصار .

والاعاصير الاجتماعية كما يقول علماء الاجتماع لا تختلف في طريقة تكونها عن الاعاصير الطبيعية ، فاذا وجد مكانين في المجتمع احدهما متخلخل الكثافة والثاني شديد فلابد ان يتجه الناس من الموضع الذي تشتد فيه كثافة السكان الى الموضع الذي تتخلخل فيه الكثافة السكانية فيحدث ما يسمى بالاعصار الاجتماعي الذي يكون على شكل ثورة او انقلاب اذا كانت الحركة في مجتمع واحد ، او على صورة تسلل او غزو اذا كانت الحركة من مجتمع الى مجتمع آخر .

واذا نظرنا الى البلاد العربية وما يجاورها من البلدان الاخرى لوجدناها تكون مكانين احداهما ذات ضغط سكاني مرتفع والاخرى ذات ضغط سكاني منخفض فالكثافة السكانية في الهند والصين وافريقيا واوربا والفراغ الهائل في البلاد العربية ، كل هذه دلائل تبشر بمستقبل مخيف وقد ابتدأت فعلا بوادر هذا المستقبل فالمنامة ودبي وابوظبي وقطر تتحول تدريجيا الى صورة هندية الرطانة والاكل وغير ذلك بل انك لتستغرب وانت ترى هذه الحشود الهائلة من الهنود الذين وفدوا على البلاد . والتسلل الافريقي في موريتانيا وغيرها من البلاد العربية والافريقية كلها تبشر على ان حركة تنقل عالمية سوف تحصل اذا لم يتلاف الامر ، ولا يمكن الحيلولة دون وقوع ذلك الا ان تزايد الكثافة السكانية عما هي عليه الان ، لاننا سوف لن نستغني عن الايد العاملة بالمرة كما لا يمكن الحيلولة دون التسلل والا لحدث غزو اجتماعي كما حدث في القرون الوسطى في اوربا اذ غزت القبائل الجرمانية والسكسونية المملكة الرومانية وكما غزا الاوربيون القارة الامريكية ليبيدوا سكانها الاصلين ، لابد اذا ان نطلق طاقة الانسال على اشدها وان نجهد انفسنا في عمارة الارض بدل من بذل الجهد فيما لا فائدة فيه .